

البُضَيْكُ الثَّانِي

فتح العرب لإسبانيا

أ - دوافع الفتح وممهدياته:

لا يمكن الحديث عن فتح العرب لإسبانيا بمعزل عن بقية حروب التحرير التي خاضها العرب المسلمون في سبيل إعلاء كلمة الله، ونقل رسالة السماء إلى الشعوب المضطهدة التي كانت ترزح تحت نير القوى الأجنبية كالفرس والبيزنطيين. فلقد كان للعرب الذين وُحِّدَهم الإسلام غاية نبيلة في الفتح تمثلت أولاً في تحرير إخوانهم العرب أينما وجدوا، وثانياً: في تحرير الشعوب الأخرى من الجهل والرثنية والتسلط الأجنبي، ثم في نشر قيم ومثل الحضارة الإنسانية التي أنارت الدرب لهذه الشعوب، وساعدت على امتزاج الثقافات، والتجارب والخبرات، خدمة للبشرية جمعاء. ولقد نجح العرب في شمال أفريقيا - كما نجحوا في غيرها من الأماكن - في كسب سكان البلاد الأصليين، أي البربر، إلى جانبهم، ولو أن ذلك تأخر لفترة من الزمن بسبب تواجد القوى الأجنبية المتمثلة بالبيزنطيين الذين كانت تربطهم علاقات مع بعض البربر المواليين لهم والذين قاوموا الفتح العربي إلى حين. ولكن عندما أدرك البربر جوهر الرسالة السامية التي يحملها العرب، وأنهم لم يأتوا من أجل مغنم أو كسب مادي، تعاونوا معهم وامتزجوا بهم، ووجد الإسلام بين الاثنين، فأصبحوا قوة كبيرة في المنطقة. واعتمد العرب اعتماداً كبيراً على البربر، لا سيما في عهد الوالي موسى بن نصير، حيث عهد إلى زعماء من البربر بقيادة الجيوش الإسلامية التي استمرت تؤدي رسالتها في استكمال تحرير شمال أفريقيا. وبفضل هذا التعاون الفعال استطاع العرب أن يحققوا فتح إسبانيا.

في بداية العقد الأخير من القرن الأول الهجري (في حدود سنة 90هـ/708م) عهد القائد العربي موسى بن نصير إلى طارق بن زياد بتولي قيادة البربر المسلمين الذين انتظموا في صفوف الجند العربي في منطقة المغرب الأقصى، فاتخذ مدينة طنجة مقراً له. ولقد كان حماس هؤلاء البربر إلى الجهاد ونشر مبادئ الإسلام التي جاء بها العرب كبيراً. ونظراً لطبيعة المنطقة الجغرافية، فلم يكن أمام طارق وجنده سوى التوجه بأنظارهم إلى شبه

الجزيرة الأيبيرية، ولا سيما أن مناطق الجنوب كانت صحراوية لا تشجع على التجارة إليها أو التوغل فيها. يضاف إلى ذلك، أن البربر كانوا على اتصال دائم مع السواحل الإسبانية لقربها، وكانوا أيضاً على علم تام ومعرفة أكيدة بمدى خصب شبه الجزيرة وغناها، وعن خطورة مشاكلها الاجتماعية والسياسية، التي ذكرناها آنفاً، وضعف دولة القوط الغربيين بصورة عامة. ولقد شجعت هذه العوامل العرب والمسلمين على التفكير بفتح إسبانيا، وضمها إلى حظيرة المناطق التي تم تحريرها في المشرق العربي وشمال إفريقيا. أما ما يذكره بعض المستشرقين المغرضين، وما يروجه بعض الكتاب من التلميح إلى أن الدوافع المادية، والغنائم، وحب التوسع هي التي دفعت بالعرب إلى الفتوحات، فأمر لا يؤيده الواقع⁽¹⁾. فلم يكن هدف العرب الكسب المادي، بل كانت لهم غاية نبيلة أهم من ذلك بكثير، وأبعد تأثيراً، ألا وهي نقل مبادئ وقيم السماء السمحة إلى البلاد المفتوحة، والجهاد في سبيل الله من أجل تحريرها. أما الغنائم والمكاسب، فهي تحصيل حاصل، ونتيجة طبيعية من نتائج الحروب التي كانت وما تزال تقوم بين الأمم، فالغالب لا بد أن يستولي على مخلفات المغلوب، ولو أن موقف العرب من هذا أفضل بكثير من مواقف غيرهم من الشعوب، نتيجة لنظرتهم الإنسانية السامية.

لقد تطرقت المصادر التاريخية العربية إلى الأسباب التي أدت إلى الفتح العربي الإسلامي لشبه الجزيرة الأيبيرية، ولكنهم يرجعون السبب الرئيس إلى وازع الانتقام الشخصي، ويسوقون على ذلك قصة أسطورية ملخصها أن الكونت يوليان، أو جوليان Julian حاكم مدينة سبته قد شجع العرب على الفتح انتقاماً لنفسه من لذريق ملك إسبانيا الذي اعتدى على شرف ابنته. وتروي القصة أنه كانت لجوليان ابنة جميلة، أرسلها جرياً على عادة الأشراف في ذلك الوقت إلى بلاط طليطلة لتتعلم وتتثقف مع بنات الملك. وقد رآها لذريق وسحر بجمالها، ثم حاول أن ينال منها، ولكنها قاومته ورفضت، فلجأ إلى القوة واعتدى على شرفها برغم إرادتها. وعندما كتبت إلى أبيها بالحادث أسرع بالسفر إلى طليطلة وعاد بابنته إلى سبته، وهو يضمم الشر والانتقام. وقد دفعه حقه هذا إلى التوجه إلى موسى بن نصير وحثه على فتح إسبانيا⁽²⁾. وتذكر روايات أخرى أنه سار

(1) قارن: إبراهيم بيضون، الدولة العربية في إسبانيا، بيروت، 1978، ص 64 - 65.

W. Montgomery Watt. A History of Islamic Spain, Islamic Surveys 4, Edinburgh, 1967. pp. 5-9.

(2) أخبار مجموعة، ص 5؛ فتح الأندلس، ص 3 - 4؛ المقري ج 1، ص 251 - 253.

بالقوة بسبب حصانة أسوارها، ومقاومة جنود جوليان، فتم عقد الصلح بين الطرفين. وبموجب هذا الصلح ظل جوليان حاكماً على سبته مقابل اعترافه بالسيادة العربية، ورجع موسى إلى القيروان⁽⁶⁾.

وتذكر الحوليات اللاتينية رواية أخرى مفادها أن أولاد غيطشة هم الذين اتصلوا بالعرب ودعواهم إلى فتح إسبانيا ومساعدتهم في إعادة ملكهم المفقود، وأنّ الفتح العربي، ونجاحه كان نتيجة لهذا الاتصال⁽⁷⁾. وتشير بعض المصادر العربية أيضاً إلى مباحثات جرت في طنجة قبيل الفتح بين طارق بن زياد وأحد أولاد غيطشة⁽⁸⁾. بينما يقول آخرون أن هذه المباحثات حدثت قبيل بدء المعركة الفاصلة بين طارق بن زياد وجيش القوط بوقت قصير. وذلك عندما أصبح طارق فعلاً في إسبانيا؛ فعرض أبناء غيطشة، أن يتخلوا عن لذريق، ويؤيدوا طارقاً بجنودهم شريطة أن يضمن لهم كل ممتلكات والدهم، والتي تبلغ ثلاثة آلاف ضيعة، وهي التي سميت فيما بعد بصفايا الملك⁽⁹⁾، وذلك بعد أن يخضع إسبانيا جميعها. ولا تعرض المصادر العربية الأخرى لذكر أية مباحثات بين طارق بن زياد وأولاد غيطشة، بل كل ما في الأمر أن هؤلاء الأولاد وبعض نبلاء القوط قرروا التخلي عن لذريق في ساحة المعركة لأنهم اعتقدوا خطأ بأن العرب لا ينوون الاستقرار في البلاد، بل أنهم جاؤوا فقط من أجل الغنائم، وأنهم سيعودون بعد اندحار لذريق، ويرجع العرش إلى أسرة غيطشة⁽¹⁰⁾. وبطبيعة الحال، فإن رأي هؤلاء المؤرخين أقرب إلى الصواب، وينسجم مع طبيعة الأحداث، فضلاً عن أنه يعارض فكرة نجاح الفتح بمساعدة قوى من داخل إسبانيا، الأمر الذي يروجه أعداء العرب للتقليل من شأنهم وقوتهم، فيبالغون في دور أسرة غيطشة في

(6) انظر: أخبار مجموعة، ص 4؛ وقارن: مؤنس، المرجع السابق، ص 53 - 55؛ عبد الواحد ذنون طه، الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال أفريقيا والأندلس، ميلانو - بغداد، 1982، 142.

(7) (ملحق رقم 3 لكتاب أخبار مجموعة) The Chronicle of Albelda, p. 163;
The Chronicle of Alfonso III, p. 612.

(8) الرفيق القيرواني، تاريخ أفريقية والمغرب، تحقيق: المنجي الكعبي، تونس، 1968، ص 73؛ ابن عذاري، (برواية عيسى بن أبي المهاجر)، ج 2، ص 6.

(9) ابن القوطية، ص 5؛ الحميري، ص 9 - 10، المقري، ج 1، ص 258.

(10) أخبار مجموعة، ص 7 - 8؛ فتح الأندلس، ص 6 - 7؛ ابن الأثير، ج 4، ص 563؛ المقري (برواية ابن حيان) ج 1، ص 231 - 232، 257 - 258.

مساعدة العرب، وكذلك في دور اليهود، كما سنرى فيما بعد⁽¹¹⁾.

وإذا ما سلمنا بأن دور أسرة غيطشة وأنصارها قد اقتصر على الوقوف إلى جانب العرب بعد عبورهم فعلاً إلى إسبانيا، فإن دور الكونت جوليان يبقى أمراً لا يمكن إنكاره بسبب إجماع الروايات، على وجوده وموقفه من الفتح. ولكن ما هي مصلحة جوليان من فتح العرب لإسبانيا، لا سيما أننا استبعدنا دافع الانتقام الشخصي المتمثل برواية ابنته في بلاط طليطلة؟ لقد سبقت الإشارة إلى العلاقات الطيبة بين جوليان والملك غيطشة، وإلى المساعدات التي كان يتلقاها الأول من إسبانيا. ولكن بوفاة غيطشة ومجيء لذريق، توقفت هذه المساعدات نتيجة لانشغال الأخير بمشاكله الداخلية العصبية. وقد استاء جوليان من هذا الموقف، وشعر بأهمية التعاون مع العرب وبشكل خاص في العبور إلى إسبانيا، لأنه أدرك قوة العرب ومستقبل سيادتهم على المنطقة، هذا بالإضافة إلى أنه كان من أصدقاء الملك غيطشة، وبالتالي فهو لم يرض عن استيلاء لذريق على عرش إسبانيا بدلاً من ورثة غيطشة. ولهذا فقد بدأ اتصاله بطارق بن زياد لأنه كان قريباً منه في طنجة، أو ربما يكون طارق نفسه هو الذي اتصل به واطلع على رأيه في مسألة العبور إلى إسبانيا، لا سيما أننا نعلم أن دوافع العرب والمسلمين، والتي ذكرناها في أول الفصل، كانت قوية للفتح والتحرير، فلم يكونوا بحاجة لمن يحثهم على هذا الواجب المقدس، بل هم الذين اتخذوا بادرة الفتح بقيادة قائدهم الشجاع طارق بن زياد.

وتذكر بعض المصادر أن موسى بن نصير هو الذي اتخذ قرار الفتح، وهم يشيرون أيضاً إلى مراسلات تمت بهذا الشأن مع الخليفة في دمشق⁽¹²⁾. ولكن بعد المسافات بين طنجة والقيروان ودمشق تدعو المرء إلى التحفظ في قبول هذه الرواية، وبخاصة أن العديد من المؤرخين الآخرين يشيرون صراحة إلى أن عبور طارق إلى إسبانيا كان دون معرفة موسى بن نصير⁽¹³⁾. وبطبيعة الحال، فإن هذه المسألة ليست جوهرية، لأن هدف

(11) عن آراء بعض الكتاب المحدثين بشأن هذه الروايات انظر:

مؤنس، فجر الأندلس، ص 55 - 57، 63 - 64؛ العبادي، المرجع السابق، ص 55، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، بيروت، 1962، ص 66 - 67.

(12) ابن القوطية، ص 8؛ أخبار مجموعة، ص 5 - 6؛ فتح الأندلس، ص 2، 4 - 5؛ ابن الكردبوس، الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق: أحمد مختار العبادي، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمديرية، العدد 13، 1965 - 66، ص 45 - 46؛ ابن عذاري، ج 2، ص 5 - 6؛ cf. Levi-Provençal, «al-Andulus», Encyclopaedia of Islam, New edition.

(13) رواية الواقدي في: البلاذري، فتوح البلدان، نشر: ذي غوية، لندن، 1866، ص 230 و 231؛ =

معركة كورة شذونة:

مضى على طارق نحو شهرين ونصف قبل أن تقع المعركة الفاصلة بينه وبين لذريق في كورة شذونة. وتذكر الروايات أنه هوجم في هذه الأثناء من قبل قائد قوطي يسمى تدمير Theodemir الذي لم يستطع إعاقة تقدم جيش طارق، فأرسل إلى لذريق بطلب المساعدة الفورية⁽²⁹⁾. واعتماداً على روايات أخرى، فإن لذريق كان قد أرسل قوات عديدة لإيقاف الجيش العربي الإسلامي، كانت إحداهما بقيادة ابن أخ له يدعى بنج Banj

(26) Cf. Levi-Provençal, op. cit., vol. I. p. 18.

(27) ابن حبيب، ص 222؛ فتح الأندلس، ص 8؛ ابن الأثير، ج 4، ص 562؛ ابن عذاري (برواية الرازي) ج 2، ص 6؛ المقرئ، ج 1، ص 25.

(28) ابن القوطية، ص 8 - 9؛ ابن عذاري، ج 2، ص 9، 256؛ P. 65؛ Cf. Saavedra, op. cit., p. 65; Madoz, Diccionario geografico-estadistico historico de Espana Y sus Posesiones de Ultramar, Madrid, 1848-50, vol. XV, p. 65.

(29) ابن حبيب، ص 222؛ المقرئ، ج 1، ص 24؛ علي بن عبد الرحمن الهذيل، كتاب تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس، مخطوط المكتبة الوطنية بمدريد، رقم 5095، ص 132.

(بالاسبانية Sancho أو Bancho)، ولكنه قتل مع رجاله⁽³⁰⁾. ولا يتوفر لدينا دليل يمكننا من أن نقطع برأي جازم في صحة أحداث هاتين الروايتين، ولكن يبدو أنه من غير المحتمل أن يقوم لذريق بإرسال قوات من مكان بعيد في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة، حيث كان مشغولاً بالقضاء على اضطرابات خطيرة في مقاطعة الباسك. وعلى أية حال، فما أن سمع لذريق بنزول طارق حتى رجع نحو الجنوب، وقام بالاستعدادات اللازمة لمواجهة جيش الدولة العربية، ومنها أنه توصل إلى مصالحة أسرة غيطشة وأنصارها للوقوف صفاً واحداً أمام المسلمين. وتبالغ الروايات العربية في تقدير جيوش الأعداء، فتذكر بأن عدد جيش لذريق كان يتراوح بين أربعين إلى مئة ألف رجل⁽³¹⁾. وبطبيعة الحال، فإن الأوضاع السيئة التي كانت تعيشها إسبانيا في ذلك الوقت، تجعلنا لا نميل إلى تصديق الروايات التي تبالغ كثيراً في عدد الجيش القوطي، ومع هذا، فمن المؤكد أنه كان يفوق جيش طارق بكثير.

وتقابل الجيشان في كورة شذونة جنوب غرب إسبانيا، ولكن موقع المعركة الدقيق غير معروف تماماً. وهناك العديد من الدراسات الحديثة بشأن المكان الذي وقعت فيه المعركة الفاصلة بين لذريق وطارق، ومصير لذريق في هذه المعركة. وعلى سبيل المثال، فإن المستشرق الإسباني سافيدرا، يرى حدوث معركةين: الأولى: وقعت قرب مدينة شذونة، بين جبل رتين (Retin) وبحيرة لاخاندا (la Janda)، والثانية: عندما هرب لذريق نحو الشمال وحارب جيش الدولة العربية بالقرب من مدينة سلمنقة Salamanca، حيث قتل ودفن في منطقة مجاورة⁽³²⁾. ويعارض ليفي بروفنسال وغيره من المستشرقين هذه الفكرة، ويتفقون مع المؤرخين العرب على حدوث معركة واحدة فقط بين القوط والمسلمين، وقعت بالقرب من ضفاف نهر وادي بكة أو لكعة Guadalete، في كورة شذونة، وأن لذريق هزم وقتل، أو فقد قرب هذا النهر⁽³³⁾.

(30) نص الرازي المنشور بالاسبانية ملحقاً لكتاب سافيدرا Saavedra المذكور آنفاً، ص 149 - 150؛

ابن عذاري، ج 2، ص 8؛ وقارن: مؤنس، فجر الأندلس، ص 70.

(31) ابن حبيب، ص 222؛ ابن الأثير، ج 4، ص 562؛ أخبار مجموعة، ص 7؛ ابن خلدون، ج 4، ص 254؛ المقرئ، ج 1، ص 258.

(32) Saavedra, op. cit., pp. 68-69; Cf. Chronicle of Alfonso III, p. 612.

(33) Levi-provençal, op. cit., pp. 20-21; C. Sanchez-Albornoz, «Otra vez Guadalete Y Covadonga», Cuadernos de Historia de Espana, I-II, 1944, pp. 12, 42, 56-58, 67.



ويذكر بعض المؤرخين العرب أن لذريق هرب من ساحة القتال، وأنه قتل أو غرق في مكان يدعى وادي الطين، ولكنهم لم يحددوا موقع هذا المكان⁽³⁴⁾. ويعتمد الدكتور حسين مؤنس على التشابه الموجود بين اسم وادي الطين، واسم Guadalentin الذي هو أحد فروع نهر شقورة Seguar في محافظة مرسية في شرق إسبانيا، فيقترح بأن وادي الطين ما هو إلا نهر Guadalentin، ولهذا فهو يرى بأن المسلمين لاحقوا لذريق إلى هذا المكان⁽³⁵⁾، وهذا احتمال بعيد يصعب تصديقه، لا سيما إذا ما لاحظنا بعد المسافة بين شذونة في الجنوب الغربي من إسبانيا، ومحافظة مرسية في الجنوب الشرقي.

إن موقع المعركة الدقيق ليس له أية أهمية جوهرية بالرغم من كثرة البحوث والمقالات التي كتبت فيه. ومع هذا فعلى الباحث أن يعترف أنه بالرغم من أن المعركة استمرت ثمانية أيام فقط (28 رمضان - 5 شوال 92هـ/ 19 - 26 تموز 711م)، فإن معركة واسعة النطاق كهذه، سميت بعدة أسماء مختلفة مثل معركة البحيرة، وادي بكة، وادي لكة، وادي البرباط، شريش، السواني، والسواقي، لا يمكن أن نحدد لها، كما يرى الدكتور أحمد مختار العبادي⁽³⁶⁾، مكاناً واحداً مثل جنوب مدينة شذونة أو شماليها، ولهذا فمن المحتمل جداً أنها حدثت كلياً أو جزئياً في كل هذه المناطق المذكورة التي تقع في كورة شذونة، فهي معركة هذه الكورة بأسرها⁽³⁷⁾.

استئناف حملة طارق إلى الشمال

انهزم القوط الغربيون في هذه المعركة وتفرق جمعهم، وتكبدوا خسائر فادحة، ولكن مصير لذريق، كما أسلفنا، لم يكن معروفاً. أما المسلمون، فقد استشهد منهم ثلاثة آلاف رجل⁽³⁸⁾. ولقد كان هدف طارق المباشر أن يلاحق فلول المنهزمين وينهي مقاومتهم قبل أن يستأنف سيره نحو الشمال. وهذا يشير إلى أنه كان على علم تام

(34) الرقيق، ص 75؛ ذكر بلاد الأندلس، ص 85؛ ابن عذاري، ج 2 ص 7.

(35) مؤنس، رواية جديدة عن فتح المسلمين للأندلس، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، العدد الثامن عشر، 1974، ص 91 - 93، 124.

(36) في تاريخ الأندلس والمغرب، ص 72.

(37) انظر: عبد الواحد ط.، المرجع السابق، ص 168.

(38) ابن الشباط، صلة السمط وسمة المرط، نشرة الدكتور، أحمد مختار العبادي في مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، العدد 14، 1967، ص 107؛ المقري (برواية الرازي) ج 1، ص 259.

الرحمن بن عبد الله الغافقي الأندلس سنة 112هـ/730م، وهي ولايته الثانية. وكان قد تولى الأندلس، بعد عزل عذرة بن عبد الله الفهري عدة ولاية لم يبق أحدهم بعبور جبال ألبرت لاستئناف الفتح، وهم يحيى بن سلمة الكلبي وحذيفة بن الأحوص 56 of 524 وعثمان بن أبي نسعة الخثعمي، والهيثم بن عبيدة الكناني، ومحمد الأشجعي، ولم تتجاوز مدة حكم كل من هؤلاء، باستثناء يحيى بن سلمة الذي حكم أكثر من سنتين، عدة شهور⁽³¹⁾.

الفتوح في عهد عبد الرحمن الغافقي:

كان عبد الرحمن الغافقي من العرب البلديين، أي الذين دخلوا الأندلس مع حملتي طارق وموسى واستقروا فيها. وهو من القادة الأكفاء الذين ساهموا في حملات الفتح في جنوب فرنسا، وقاد المسلمين بسلام إلى الأندلس بعد استشهاد السموح بن مالك في معركة طولوشة. ويبدو من إجماع عرب الأندلس على تقديره أنه كان نزيهاً مؤمناً سليم الإيمان، حريصاً على تطبيق الشريعة فيما يخص توزيع الغنائم على الجنود⁽³²⁾. وكان عبد الرحمن يعد من التابعين، ومن رواة الحديث النبوي الشريف، فقد ورد في ترجمته أنه روى عن عبد الله بن عمر بن الخطاب⁽³³⁾، ولهذا كان محل احترام صلحاء المسلمين، فضلاً عن جنده، لعدالته في تقسيم الغنائم، وعدم رغبته في حطام الدنيا. ومما يؤسف له أننا لا نجد معلومات مفصلة عن عبد الرحمن وعهده في المصادر العربية، وكل ما هناك أخبار مقتضبة عن حملته على جنوب فرنسا، ولعل السبب في ذلك يعود إلى الهزيمة التي حلت بالمسلمين في معركة بلاط الشهداء، فاكتفت المصادر العربية بالإشارات الموجزة العابرة إلى هذا القائد والمعركة الأليمة التي خسرها المسلمون. ومن جهة أخرى تسهب المصادر المسيحية في الحديث عنه، وعن الحملة التي قادها إلى فرنسا، كما تشير أيضاً إلى توتر العلاقات بين عبد الرحمن الغافقي، والقائد البربري المسلم، منوسة، الذي كان يحكم في منطقة شرطانية في الشمال. فقد أعلن هذا الأخير التمرد على السلطة، بعد ازدياد التوتر بين العرب والبربر في كل من

(31) ابن القوطية، ص 13؛ أخبار مجموعة، ص 24 - 25؛ ابن عذاري، ج 2، ص 27 - 28، 49.

(32) ابن عبد الحكم، ص 216 - 217؛ الحميدي، جذوة المقتبس، القاهرة، 1966، ص 274؛ ابن الأثير، ج 5، ص 174 - 175.

(33) الحميدي، ص 274؛ الضبي، بغية الملتبس، ص 352 - 353.

شمال إفريقيا والأندلس. وتزعم المصادر اللاتينية، أن منوسة عقد الصلح مع الفرنجة، ووثق علاقته معهم، دون استشارة الوالي في قرطبة. ولهذا فبعد سماع الغافقي بالموقف المعادي لمنوسة، وبالعلاقات القائمة بينه وبين الدوق أودو، دوق أكيثانية، أرسل حملة عسكرية نجحت في القضاء على التمرد، وقتلت منوسة⁽³⁴⁾.

وبعد أن نظم عبد الرحمن الغافقي البلاد، وقضى على الاضطرابات الداخلية، تهيأ لمجابهة تحدي الفرنجة وتهديدهم للحكم العربي الإسلامي في غالة القوطية. ويبدو أن عبد الرحمن الغافقي كان يختلف عن سلفه من الولاة، فهو من طراز الفاتحين الذين يرسمون خطة الفتح الثابت المستقر. فمن جملة الأسباب التي دعت إلى استئناف الحملات على فرنسا، هو العمل على تأسيس وتثبيت موطئ قدم للمسلمين عبر جبال ألبرت، وتقوية قاعدة أربونة الإسلامية. ومن المحتمل أنه كان ينوي إسكان بعض البربر في منطقة الشمال الغربي من إسبانيا في المناطق المفتوحة في جنوب فرنسا. ويدل على هذا ما جاء في إحدى الحوليات المسيحية من أن المسلمين الذين عبروا إلى فرنسا كانوا بأعداد كبيرة، وقد اصطبحوا نساءهم وأطفالهم وممتلكاتهم المنقولة، مما يدل على أنهم كانوا ذاهبين للاستقرار هناك⁽³⁵⁾.

اتخذ عبد الرحمن من مدينة بنبلونة قاعدة لتجميع الجند المتوجهين للجهاد معه إلى جنوب فرنسا. ثم عبر جبال ألبرت من ممرات رونشفال Roncesvalles، أي أنه لم يسلك الطريق المحاذي للبحر الذي يؤدي إلى سبتمانية، بل سلك طريقاً في وسط الجبال يفضي مباشرة إلى قلب دوقية أكيثانية. ولكنه قبل أن يهاجم هذه الدوقية توجه مع فرقة من جنده نحو وادي رودنة لإعادة فتح مدينة آرل Arles التي شقت عصا الطاعة، وتوقفت عن دفع الجزية، فاسترجعها بعد معركة عنيفة⁽³⁶⁾. ويظن بعض المؤرخين الافرنج أن حملة الغافقي على مدينة آرل لم تكن سوى خدعة قصد بها صرف نظر الفرنجة عن وجهة الحملة الحقيقية، وهي دوقية أكيثانية في الجهة الشمالية⁽³⁷⁾. فلما سقطت هذه المدينة توجهت جيوش عبد الرحمن مباشرة نحو بوردو عاصمة دوقية

The Chronicle of 754; pp. 155-156 (no. 58); cf. Reinaud, op. cit., pp. 272-273. (34)

(الترجمة العربية: تاريخ غزوات العرب، ص 88 - 89).

Abadal, op. cit., p. 29.

(35) (ملحق أخبار مجموعة، رقم 6)، Paul the Deacon, book, 6. p. 167

(36) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج 1، ص 90؛ فجر الأندلس، ص 265.

(37) تاريخ غزوات العرب، نقلاً عن رينو، ص 99.

أكيثانية، التي قاومت مقاومة واهية، فحاول المسلمون فتحها عنوة. وقد حاول الدوق أودو عبثاً أن يمنع تقدم عبد الرحمن وتوغله في أراضيه، فاشتبك معه في معركة حاسمة بالقرب من التقاء نهري الدوردوني Dordogne والجارون Garonne، مما أدى إلى انهزامه هزيمة قاصمة، انسحب على أثرها نحو الشمال. فدخل المسلمون عاصمته، وغنموا فيها غنائم هائلة، وعاقبوا كل من قاومهم من أهلها⁽³⁸⁾. ثم تقدموا نحو اللوار يفتحون كل ما وقع تحت أيديهم من المناطق التي تؤدي إلى مدينة تور Tours.

وعندما أدرك الدوق أودو استحالة صد الجيوش الإسلامية الفاتحة، اضطر إلى الاستنجاد بشارل مارتل حاجب ملك الدولة الميروفنجية، وطلب مصالحته لصد المسلمين، خاصة وأن هدف هؤلاء التالي كان الوصول إلى أراضي دولة الفرنجة ذاتها. وقد أدرك شارل مارتل الخطر، فاستجاب إلى التماس أودو، وشرع في جمع الجند والفرسان من كل صوب، وبعث يستقدم الرجال من حدود الرين، فجاءه هؤلاء وكانوا من المحاربين الشماليين الأشداء الذين لا يقلون عن العرب والبربر شجاعة وقوة وصبراً في الحروب. وبهذا اجتمع للفرنج جيش قوي قادر على الثبات أمام الجيوش العربية الإسلامية⁽³⁹⁾.

كان المسلمون يتهيأون للاستيلاء على مدينة تور عندما سمعوا بوصول شارل مارتل وجنده. وقد التقى الجيشان في رمضان 114هـ/ تشرين الأول 732م، وجرت بينهما مناوشات عديدة لمدة سبعة أيام. ثم تحول القتال إلى صدام مروع، رجحت كفة المسلمين في بدايته، لكنهم عجزوا عن اختراق صفوف الفرنجة وحلفائهم من الألمان والسكسون والسويف. يضاف إلى ذلك، أن الفرنجة هاجموا مؤخرة الجيش الإسلامي، مما أدى إلى الاخلال بنظام الجيش. وعندما حاول عبد الرحمن التدخل بشجاعة فائقة لإعادة النظام إلى صفوف جيشه، أصابه سهم من جهة العدو، فخر شهيداً في المعركة. وقد زاد هذا من إرباك المسلمين، لكنهم استمروا في القتال، وخلصوا مخيمهم في مؤخرة الجيش من أيدي الأعداء، إلى أن أقبل الليل فحجز بين الفريقين. ثم تشاور كبار قادة المسلمين وتوصلوا إلى قرار بالانسحاب من موقع المعركة. فانتهزوا فرصة الظلام، وتسلبوا نحو الجنوب، تاركين خيامهم وغنائمهم التي لم يتمكنوا من حملها معهم.

(38) سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص 142.

The Chronicle of 754, p. 156 (no. 59).

The Chronicle of 754, p. 156 (no. 59).

(39)

عن نفسها. ويقابل هذا العامل من الناحية الثانية، تكتل الإمارات في غالة، واستماتها في الدفاع والوقوف أمام المسلمين. هذا فضلاً عن معرفة الفرنج للمواقع وطبيعتها ودروبها، وتعودهم على القتال في جوها المطير الشاتي وأرضها الموحلة، وتلالها الوعرة. يضاف إلى ذلك، أنه كان من السهل عليهم الحصول على الامدادات من كل نوع، وهذه أمور أساسية حُرم منها جيش عبد الرحمن الغافقي بعد توغله العميق في فرنسا⁽⁴⁵⁾.

أما ما يقال عن الخلاف بين صفوف الجيش، والنزاع بين عناصره المؤلفة من العرب والبربر، فلا يتوفر لدينا ما يشير إليه من قريب أو بعيد، اللهم إلا في الروايات المسيحية التي تبني حول قصة منوسة كثيراً من الأحداث الملفوفة بالأساطير. ولكن المتمعن في تكوين عناصر الجيش الذي قاده عبد الرحمن الغافقي، يلاحظ أنه كان يتألف من أغلبية من البربر الذين كانوا مستقرين في منطقتي الأشتوريش وجبال ألبرت. وبالامكان التوصل إلى هذا الاستنتاج من حقيقة اتخاذ الغافقي لمدينة بنبلونة مركزاً لتجميع جنده. وكان هناك أيضاً الكثير من العرب في هذا الجيش، لا سيما القبائل اليمانية في منطقة سرقسطة والشعر الأعلى. ولكن البربر شكلوا الأغلبية، وكانوا، كما أسلفنا، برفقة أسرهم. وقد أرقق هذا الموقف الجيش، وقلل من قابليته على المناورة. ولم يكن باستطاعة الغافقي، الذي كان على علم بهذا الموقف، أن يقوم بعمل أي شيء بسبب رغبة رجاله الشديدة لحماية أسرهم. وهذه الحقيقة بالذات كانت هي السبب في ضعف موقف المسلمين، وليس تلهفهم على الغنائم، كما تحاول أن تصور ذلك بعض الروايات المسيحية⁽⁴⁶⁾. وقد أدرك الفرنجة نقطة الضعف هذه في جيش المسلمين. ولهذا ففي أثناء الموقعة الفاصلة، هاجمت كتيبة من جيش الفرنجة - ربما كانت بقيادة دوق أكيثانية - مؤخرة مخيم المسلمين الذي كان يضم نساءهم وأطفالهم⁽⁴⁷⁾. وما إن سمع المسلمون بهذا، حتى ترك الكثير منهم مواقعهم، وذهب ليدافع عن أهله وأولاده. وكان هذا بداية لاختلال النظام في صفوفهم، وعاملاً رئيساً لهزيمتهم في المعركة⁽⁴⁸⁾.

(45) انظر: علي المياح، «العوامل السوقية والتعبوية وأثرها على الفتوحات العربية الإسلامية في فرنسا»، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية، بغداد، 1969، م 5، 129؛ عبد الرحمن الحجبي المرجع السابق، ص 196.

(46) (تاريخ غزوات العرب، ص 100 - 101). See: Reinaud, op. cit., pp. 400-401.

(47) (تاريخ غزوات العرب، ص 101). Ibid., p. 41.

(48) عبد الواحد طه، الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال أفريقيا والأندلس، ص 347؛ =

ج - حملة موسى بن نصير:

لقد كان رد الفعل لنجاح حملة طارق عظيماً في شمال إفريقيا، فبعد سماعهم بالنصر الذي أحرزه طارق على لذريق في موقعة كورة شذونة، اتجه البربر إلى إسبانيا من كل صوب، وعبروا المضيق بكل ما وقعت عليه أيديهم من قوارب ومراكب. وبعد وصولهم مباشرة، بدأوا بالاستقرار في المناطق السهلة من البلاد، لا سيما تلك التي هجرها السكان المحليون الذين هربوا إلى القلاع والحصون المنيعة⁽⁵³⁾. وعندما وصلت هذه الأنباء، وأحداث النجاح الباهر الذي حققه طارق في إسبانيا، إلى اسماع موسى بن نصير في القيروان، قرر أن يزحف بجيش عربي كبير إلى شبه الجزيرة ليتم عمل طارق وينهي المقاومة القوطية المتبقية. وتشير إحدى الروايات إلى أن طارقاً أسرع بعد انتصاره على قوات القوط الغربيين بإشعار موسى بن نصير بالنصر الذي أحرزه، وسأله القدامى للنجدة بإمدادات جديدة⁽⁵⁴⁾. أما الروايات التي تصور عبور موسى على أنه نوع من الحسد لطارق خشية أن يحصل وحده على شرف الفتح وغنائمه، فلا نصيب لها من الصحة، لأن طارقاً كان أحد قادة موسى وما يفتحه فهو باسم أميره ولمصلحة الدولة العربية الإسلامية التي ينتمي إليها الاثنان. يضاف إلى ذلك أن موسى بن نصير، كان أعظم من أن يحسد أحد رجاله، وهو القائد العظيم الذي حرر الشمال الإفريقي بأسره، وجاهد في سبيل نشر مبادئ الحق والعدل التي حملها العرب إلى الأمم المختلفة. إن حملة موسى بن نصير لا يمكن أن تفسر إلا على ضوء المصلحة العامة التي اقتضت تثبيت الفتح وتعزيزه، ونجدة الجنود المسلمين الذين اتخذوا زمام المبادرة بالعبور إلى إسبانيا في الحملة الأولى. ولما كان موسى بعيداً في القيروان، فإن تصوره عن ظروف عبور طارق ووضعه في الأندلس لم يكن واضحاً تماماً، ولهذا، فقد كتب إليه يلومه على مبادرته بالهجوم دون تلقيه الأوامر منه، وأرسل إليه تعليمات بعدم التحرك من مواقعه التي هو فيها حتى يلحق به⁽⁵⁵⁾. ولكن طارقاً لم يستطع تنفيذ هذا الأمر بسبب

(53) المقري (برواية الرازي) ج 1، ص 259.

(54) الإمامة والسياسة، منسوب لابن قتيبة، نشر ملحقاً لكتاب ابن القوطية، ص 124؛ قارن: مؤنس، فجر الأندلس، ص 89.

(55) ابن عبد الحكم، ص 207؛ البلاذري، فتوح البلدان (برواية الواقدي)، ص 230 - 231؛ الرقيق، ص 76؛ المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، أمستردام، 1968، ص 7 - 8؛ ابن عذاري، ج 2، ص 13.

المقاومة القوطية، والجيوب التي كان لا بد من القضاء عليها بسرعة، لا سيما في طليطلة وما يجاورها.

وصل موسى بن نصير إلى الأندلس في رمضان سنة 93هـ/حزيران - تموز 712م. وكان يرافقه جيش عربي يقدر عدده بنحو ثمانية عشر ألف رجل. وكان معظم هؤلاء من القبائل اليمانية، وبقية العشائر العربية الأخرى التي كانت موجودة فعلاً في شمال أفريقيا، وبشكل خاص في القيروان. وضمت الحملة أيضاً أعداداً كبيرة من رجال قريش البارزين، الذين كانوا في مناصب القيادة، إضافة إلى الإداريين، ورجال الدين، وبقية القادة المحنكين من أمثال محمد بن أوس الأنصاري، وحبيب بن أبي عبيدة الفهري، وعياش بن أخيل، وعبد الجبار بن أبي سلمة الزهري، والعديد من أبناء موسى نفسه، باستثناء عبد الله، الذي تخلف في القيروان ليتولى مسؤولية ولاية شمال أفريقيا⁽⁵⁶⁾.

لقد قسم موسى جيشه إلى وحدات عديدة تبلغ أكثر من عشرين وحدة، كل وحدة تحت راية. وكانت اثنتان من هذه الرايات تحت قيادة موسى المباشرة، بينما تولى ابنه عبد العزيز قيادة راية ثالثة. أما بقية الرايات، فكانت بقيادة قواده من قريش ومختلف العشائر العربية الأخرى. وقد عسكرت الحملة بالقرب من الجزيرة الخضراء لعدة أيام من أجل الراحة والاستعدادات العسكرية. وعندما قرر موسى السير، استشار قواده بشأن الطريق التي يجب سلوكها. وقد اتفق الجميع أن يبدأوا بمنطقة أشبيلية، وبقية الأجزاء الغربية الأخرى، التي لم يفتتحها بعد طارق بن زياد. وقبل أن يغادر موسى الجزيرة الخضراء، أمر بإرساء الحجر الأساس لبناء مسجد هناك تخليداً لذكرى حملته هذه، سمي بمسجد الرايات⁽⁵⁷⁾.

خط سير حملة موسى:

لقد كان لأدلاء جوليان وأعوانه دوراً كبيراً في تعريف موسى بن نصير بالطريق الجديدة والمدن غير المفتوحة، وهكذا فقد سارت الحملة بالقرب من شذونة، ثم زحفت شمالاً إلى قرمونة Carmona. ونظراً لقوة هذه المدينة وحصانتها، كان على موسى أن يستعمل الحيلة في فتحها، فأرسل إليها بعض أتباع جوليان الذين أظهروا لأهل

(56) ابن عبد الحكم، ص 207؛ الرقيق، ص 76؛ المقري (برواية الرازي) ج 1، ص 277.

(57) محمد عبد الوهاب الغساني؛ رحلة الوزير في افتكاك الأسير، مخطوط المكتبة الوطنية بمadrid،

رقم 5304، ص 99؛ الرسالة الشريفة، منشورة مع كتاب ابن القوطية، ص 197 - 198.

المدينة على أنهم أصدقاء جاؤوا فراراً من العرب، فسمح لهم القوط بدخول المدينة. ولكن ما إن حل الليل، حتى فتح هؤلاء الأبواب للعرب، فهجموا على الحراس، وفتحوا المدينة. وبعد ذلك تقدم موسى إلى قلعة رعوآق Alcalá de Guadaíra، ففتحها⁽⁵⁸⁾، ثم سار إلى أشبيلية التي قاومت هجوم الجيش العربي الإسلامي لعدة شهور، ولكنها أخيراً فتحت عنوة، وفرت حاميتها إلى باجة Beja. وترك موسى قوة من جنده للدفاع عن المدينة، ثم سار إلى ماردة. وتذكر بعض الروايات الأخرى، أن موسى لم يذهب مباشرة إلى ماردة، بل لاحق فلول المنهزمين غرباً إلى لبله Niebla، واكشونة Ocsconoba، وباجة في جنوب البرتغال⁽⁵⁹⁾.

وبعد أن تم فتح هذه المدن، سار موسى باتجاه ماردة Merida، وضرب عليها الحصار، ولكن جنود القوط قاوموا الهجوم العربي الإسلامي، مما أدى إلى سقوط بعض الشهداء في صفوف جيش موسى. وأخيراً وبعد مقاومة دامت عدة أشهر استسلمت المدينة في شوال 94هـ/ تموز 713م. وقد رافق هذا الاستسلام عقد معاهدة بين الطرفين، تعهد العرب بموجبها بعدم التعرض بالأذى للسكان المحليين الذين يقعون في المدينة أو يغادرونها إلى أي مكان آخر⁽⁶⁰⁾، كما ضمنت لهم حرياتهم وكنائسهم وأداءهم لطقوسهم الدينية، كما هو معروف عن التسامح العربي مع الشعوب التي يحررونها. ومن جهة أخرى ضمنت هذه المعاهدة للمسلمين ممتلكات الذين قتلوا في الحرب. والهاربين من القوط إلى منطقة جليقية في الشمال الغربي من البلاد.

توجه موسى بعد شهر من فتح ماردة إلى طليطلة. وعندما سمع طارق بقدومه خرج هو وقواده للترحيب به. ويقال أن اللقاء بين الاثنين تم في مكان يدعى المعرض Almaraz، بين نهري تاجة والتيتار Tietar، قرب طليطلة Talavera غربي طليطلة⁽⁶¹⁾. وقد عاتب موسى قائده على مباشرته الفتح دون استشارة رئيسه الأعلى، وعلى عدم

(58) فتح الأندلس، ص 10؛ أخبار مجموعة، ص 17 - 18.

(59) الغساني، المصدر السابق، ص 99 - 100؛ الرسالة الشريفة، ص 198 - 199.

(60) انظر نص الرازي المنشور من قبل جاينجوس بالاسبانية تحت عنوان:

LA cronica del Moro Rasis, Memoria sobre la autenticidad de la cronica denominada del Moro Rasis, Memorias de la Real Academia de la Historia, VIII, Madrid, 1852, pp. 67-100, p. 78.

(61) ابن عبد الحكم، ص 207؛ أخبار مجموعة، ص 18؛ ابن عذاري، ج 2، ص 16.